شَفِيق غُرْبال مُؤَرِّخًا[١]

أ.د أحمد عبد الرحيم مصطفى
(١٩٢٥- ٢٠٠٢م)
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة عين شمس
(رحمه الله)

(١) محاضرة ألقيت في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في ١٩٦٢/١٢/٣.

obeikan.com

obeikan.com

يمثل محمد شفيق غربال طرازًا قائمًا بذاته في قائمة من تصدوا للكتابة التاريخية في مصر، وربما العالم العربي بأسره، وهو ينتمي إلى جيل بذاته، له سماته الخاصة ونَظَرَته الخاصة إلى العلم والمعرفة؛ وهو الجيل العملاق الذي أسهم في إعادة تشكيل الحياة الفكرية في مصر حين نقل إليها طرائق البحث العلمي التي عرفها العالم الغربي المتطور، وتمثلها وهضمها ثم عاد ينتهجها في تناول التراث العربي الإسلامي. **وبعد:**

فغربال تلميذ «أرنولد توينبي» الذي بدأ مؤرِّخًا بالمعني الحرفي للكلمة لينتهي مؤرِّخًا للحضارة ومفلسفًا لها. وأهميته في حركة التفكير التاريخي في مصر أنه يمثل نقله لها وزنها، وأنه ترك انطباعات حية في تفكير ونهج من تتلمذوا عليه ... وهي انطباعات اختلفت قوة وضعفًا باختلاف المدارك والآفاق ..

فغربال في حد ذاته يمثل ثورة في المنهج التاريخي في المشرق العربي؛ فهو يتميز- وفقًا لما قاله عنه الدكتور منصور فهمي- بذهن ذكي غني بشتى المعلومات، وقدرة على التركيز والتلخيص وعلى التركيب والتحليل.... إلى جنوح للتعميق المتوغل إلى واقعية ساطعة ودقة في النقد. وليس ذلك بغريب على من يرى أن المؤرخ المبدع لا بد أن «**يجمع إلى الدراية التامة بأصول النقد براعة الفنان المتمكن من الحذف والإثبات، وأن يكون ناقدًا فنانًا يقهر المادة الغفل ليستخرج منها التاريخ الحي**»[1].

وهو بعيد كل البعد عن المنهج الكلاسيكي الذي درج عليه كتاب السيرة والتواريخ والمغازي والخطط والآثار والتراجم في العالم الإسلامي: سند دراساته بتفهمه لطبيعة علمه ومدارسه في الشرق والغرب، وطعمه بشيء من التذوق الأدبي- الفني، مع توسيع لقاعدة المعرفة التاريخية بالأدب والفلسفة وعلوم النفس والاجتماع. وهنا يصدق عليه ما دعا إليه بعض المفكرين الأوروبين في القرن التاسع عشر من المهتمين بتاريخ الحضارة Kulturgeschichte من حيث جعل التاريخ محورًا للدراسات الإنسانية قاطبة.

---

(١) في تقديمه للجزء الأول من ترجمة هربرت فشر عن «تاريخ أوروبا»..

ولقد عاش غربال ومات مؤرِّخًا. حقيقة لقد تعرض لما تعرض له أمثاله من مناصب قيادية تسعى إليه ولا يسعى إليها. ولكنه كان يأخذ ذلك بشيء من الرفق، ولم ينس أو يتناس جذوة المؤرخ الكامنة فيه. كما لم يشغله شيء عن قراءاته الشاسعة في كل مجال، وهي القراءات التي مكنته من القدرة على الإفادة وأضفت عليه وضعه البارز ليس فقط في حقل الدراسات التاريخية وحدها، بل في حقل المعرفة بمعناها الواسع ، وحتى في حقل تخصصه ، أو احترافه - عن شئنا الدقة- أي التاريخ، نجد غربال لا ينتمي لعصر أو تخصص معين، وإن لمع في مجالات التاريخ الحديث.

والآن نحاول أن نضع غربال في موضعه الحق في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر. وهذا يستلزم منا مدخلًا إلى طبيعة التاريخ والمؤرخ وإلى طبيعة الفترة التاريخية التي عاش فيها غربال وأنتج.

كتب وليم ميتلاند (William Maitland) الذي كان أستاذًا للقوانين الإنجليزية : « **إن وحدة التاريخ في مجموعه تدفع كل من يتصدي لكتابة ناحية من نواحيه إلى الشعور بأن جملته الأولي إنما تقطع خيوطًا غير منتظمة** ».

وضرب لذلك مثلًا بأن جذور القانون الإنجليزي تكمن في بلاد الإغريق وأن أُصول القانون الروماني تكمن في بابل.

ثم حين قرَّر وجوب تقطيع خيوط العنبكوت أضاف قائلاً: « **وحين نقطع** [هذه الخيوط] ، **علينا أن نلحظ مصدر ومصير عدد من الخيوط المنفصلة المعقدة المتداخلة ، وهي الخيوط التي كانت توفر أنموذجًا كبيرًا جدًا بالنسبة إلى عين أي إنسان** ».

وليس أصدق من ذلك ولا أكثر حيوية في تجسيم طبيعة إحدى المشكلات الرئيسية التي تواجه المؤرخ . فهو - شأنه شأن عالم الطبيعة - تواجهه كمية ضخمة من الحقائق يطلق عليها في التاريخ اسم الوقائع . وسواء أكانت هذه الوقائع تتكشف من ثنايا عدد لا حَصْر له من الوثائق، أو ما إذا كانت بعيدة عن متناول التحقيق العلمي وسط ضباب العصور البدائية أو في ثنايا غيوم التآمر الحديث في المجالين السياسي والاقتصادي ، فإننا - على كل حال - نجد نشاط المؤرخ وقد حدت منه غزارة مادته .

يضاف إلى ذلك أن المؤرخ يختلف عن عالم الطبيعة الذي بإمكانه أن يستعيد تجربته، فمن المستحيل استعادة الحادثة التاريخية . فنحن - مثلاً- لا نستطيع أن نستدعي الملك أحمس ليذكر لنا بنفسه كيف طرد الهكسوس. ولا نستطيع استعادة معركة ووترلو لكي نتبين أسباب انتصار ولنجتون وانهزام نابليون. ونتائج اكتشاف كولمبس لأمريكا بالنسبة إلى الحياة في أوروبا لا بد أنها كانت بعيدة عن مجال التحليل حتى في الوقت الذي كانت فيه أنباء هذا الاكتشاف أمرًا جديداً.

ويمكن القول إن المؤرِّخ الحديث الذي يجمع ما يستطيع جمعه من أنباء الماضي قد يعرف عن هذه الأنباء أكثر مما كان يعرفه معاصروها.

فمهمَّة المؤرخ إذن ليست بالمهمة الهَيِّنة . والذي يُفَرِّق مؤرخًا عن آخر أن أحدهما تتشعب به الدروب جريًا وراء السَّرد والتفاصيل التي تسيطر على المادة وبين آخر يجمع ما يمكنه جمعه من المادة، ثم يعيد صياغتها وفقًا لخطة مرنة تربط أطراف الموضوع بعضها ببعض، فيخرج في نهاية الأمر بوحدة عضوية مترابطة متفاعلة لا يبددها شيء من التكرار أو التفكك. والعبرة هنا بالكيف لا بالكم. وفرق بين المؤرخ الحقيقي وبين راوي الأحداث أو جامع المادة وناشرها.

ونحن إنما نشكل جزءًا من الحضارة العربية التي نَسْتَلهم تُرَاثها؛ كما أننا- من ناحية أخرى - ننتمي إلى المجتمع العالمي المتطور . والتأريخ عند العرب - مع بعض الاستثناءات الطفيفة - إنما هو عملية من السَّرد تمعن في التفاصيل ولا تدقق أو تحقق ، بل تعتمد على الرواية والنقل والخيال في كثير من الأحيان.

والتاريخ حتى وقت قريب - وحتى الوقت الحاضر- إنما هو من ملحقات الأدب القائم على الخيال . ولقد أسرف الكثيرون في هذه الناحية ، بل امتد كثيرمن الأدباء إلى التاريخ وطبَّقوا عليه مناهجهم- إن كانت لهم مناهج- واختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يميزون : أين ينتهي الأدب وأين يبدأ التاريخ ؟! وامتد فريق آخر من المهتمين بالسياسة إلى الدراسات التاريخية التي جعلوها في كثير من الأحيان مطية لدوافع محددة . لست في هذا المقام من المتزمتين الداعين إلى

الموضوعية المطلقة[١]؛إذ أنها خرافة طالما أن من يكتب في الدراسات النظرية كائن حي ـ لا بد ـ له ميوله واتجاهاته وانفعالاته. إلا أن المؤرخ المستقل يضع كل ذلك في إطار الحد الأدنى إلا أن تدفعه الوقائع العارية إلى انفعال مُعَيَّن رضى أم لم يرض. وحتى الآن لم يتحقق للتاريخ والدراسات التاريخية الاستقلال الذاتي عن دنيا أولية سديمية تكتنفها أهواء ومصالح لا بد لها من عاصم.

ومن الطبيعي أن تحاول الحركات القومية أن تُسْنِد اندفاعاتها بأن تستخرج من اللاشعور القومي فترات عَفَى عليها الزمن كانت فيها الأمة المعينة تتبوأ مكانة سامقة سواء في الحيِّز السياسي أو الفكري أو الحضاري بوجه عام. والتاريخ هو ذاكرة الشعوب الحية، وهو قنطرة العبور من جيل إلى جيل جيئة وذهابًا. ولكن ثمة خيط رفيع على دارسي التاريخ يتبينوه : ففرق كبير بين الأمجاد الحقيقية التي لا يخلو منها تاريخ أي شعب حي، وبين الأمجاد المختلقة . فرق بين إزاحة الغبار عن الفترات الزاهية في تاريخ الأمة وبين التزييف والتجديف.

وحين بدأت نهضتنا الفكرية لم يكن ثمة تَخَصُّص بالمعنى الضيق، بل كان هناك رواد يتميزون بسعة الأفق والثقافة ؛ وعلى رأس هؤلاء رجال من طراز أحمد لطفي السيد وطه حسين وشفيق غربال. وقد كوَّن هؤلاء ما يمكن أن نسميه « بالأرستقراطية الفكرية » ، فشعورهم بذواتهم وبجدة نوع ثقافتهم ومناهجهم وبخطر دورهم القيادي في المجتمع المصري، وقلّة أعدادهم- كل هذا مما خَلَعَ عليهم أهمية خاصة وسلَّط عليهم الأضواء في مجالات الفكر والتوجيه. على أن نشاطهم قد اقتصر على دائرة ضيقة: في قاعات التدريس- مثلًا - وفي حلقات الدراسة. وهذا هو دورهم الطبيعي .

ولكن بعضهم - كأحمد لطفي السيد، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل - اشتغلوا بالصحافة وتَقَاذَفَتْهُم عواصف السياسة بحلوها ومُرِّها، فتعرَّضوا لخبرات لا يرضى عنها كل مُفَكِّر؛ ولم يجدوا التجاوب اللازم من الرأي العام الذي كان لا يزال مشدودًا إلى قيم وتصورات وزعامات تنزل إليه دون أن تعليه، وتُدغدغ أوهامه ولا تُصارحه، وتستثير خيلاءه بأحلام رومانسية غير واقعية ؛ لهذا

(١) انظر مناقشة القضية مناقشة بارعة في : Howord Fast , Literature and Reality
وملخص ما ذهب إليه المؤلف أن « الحقيقة » لا تكمن في فراغ ؛ بل لا بد لها أن « تنحاز » .

كسفت أضواء هؤلاء الرُّواد أنماط أخرى من الرجال أكثر شهرة وأشد جلبة : الساسة ومن في ركابهم من الصحفيين والمرتزقة الذين غلبتهم الأطماع والمكاسب الوقتية فلم يُرَبُّوا في الشعب قيمًا جديدة وسلَّطوا سهامهم على مَنْ ليس على شاكلتهم .

ولم تكن تَقَلُّبات السياسة المصرية في فترة ما بين الثورتين مما يغري مُفَكِّرًا جادًّا بالانزلاق إلى مهاويها : فطابعها العام ديماجوجي يأنفه المُفَكِّر الحُرّ، ووسائلها تحارب المنطق العلمي الجاد والنقد البناء . هذا هو السِّر فيما أُطْلِق عليه اسم « البرج العاجي » .

وهكذا انعزل غربال وأمثاله، أو فُرِضَت عليهم العُزلة في جوٍّ عام لا يحكمه مَنْطق معقول. جماهير حظها من الثقافة العامة قليل، تُغريها عبادة البطولة بالسِّير منقادة وراء بعض الزعامات التي ليست في مجموعها زعامات مثالية تحس بالمسئولية القومية .

لهذا لا ندهش إذا ما وجدنا عددًا من مُفَكِّرينا الجادِّين، رغم إيمانهم النظري بالحرية وبالديمقراطية ، لا يهضمون الاتجاهات الجماهيرية في ذلك الوقت كما كانت عليه . لهذا اتجه الإيمان بالفرد المبرز إلى الحلول محل الإيمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة.

وقد قوَّى هذه النكسة شعور كثير من المفكرين بأن الزيادة في عدد المُلِمِّين بالقراءة ورخص المطبوعات بدلًا من أن تؤدي إلى تنوير الجماهير شجعت على ظهور الكتب التي انعدم فيها التركيز واعوجَّ فيها الفِكْر وخَلَت من الفن.

ولم يشأ معظم الكُتَّاب البارعين أن ينحنوا لتلبية مطالب التجارة الفكرية ، وتمسكوا بمستويات صعبة المنال في عالم الفن والفكر. وبلغ ازدراء الذوق الشعبي غايته في مذهب الفن للفن الذي نادى به توفيق الحكيم ومدرسة أبوللو. وكره الكثيرون الحاضر ورؤية الجماهير الجاهلة يخدعها السَّاسة والأثرياء، فولوا وَجْهَهم شطر الماضي يحتمون به وينتعشون .

وغربال في أعماقه مفكر فنان . ومن سمات المفكر الأصيل أنه مرآة لعصره الذي هو استمرار لتراث الماضي، حقيقة إنه معظم حياته الفكرية يركز على القِلَّة الموجهة والزعامات الفردية ، وبخاصة في المجال الفكري (يتضح ذلك من اختياره لكتاب المدينة الفاضلة عند فلاسفة القرن

الثامن عشر، لكارل بيكر لكي يترجمة- وهو الكتاب الوحيد- على ما أعلم- الذي ترجمه غربال، وإن يكن قد أشرف على مراجعة الكثير من الترجمات وتقديم عدد كبير من الكتاب والمؤرخين والمترجمين. كما يتضح من بعض الشخصيات التي عرض لها في أحاديثه الإذاعية كسقراط والحسن البصري وأبي العلاء المعري والغزالي وابن تيمية وتولستوي وجمال الدين الأفغاني- وقد خلع على هؤلاء صفة أنهم غيَّروا وجه التاريخ، ومن بعض موضوعات محاضراته في هذه الجمعية: ألكسيس دي توكفيل وتولستوي وأرنولد توينبي).

إلا أن من سِمَات الفنان الأصيل حبه للشعب: الشعب لا باعتباره مجموعة من الأفراد لها ما يُسميه بعض علماء الاجتماع بالعقلية الجماعية، بل باعتباره وحدة ميتافزيقية تعكس الصورة التي يتخيَّلها المفكر الفنان لمفهوم الشعب والجماهير.

وجيل غربال رغم كونه قد شهد اندفاعة الجماهير المصرية في إبان ثورة ١٩١٩، تلك الاندفاعة العملاقة التي ألهمت توفيق الحكيم في «عودة الروح» كما ألهمت سيد درويش في أنشوداته الشعبية، وكانت من وراء معظم إنتاج المثال الكبير محمود مختار، إلا أنه شهد كذلك نكسة الثورة، وفشل الجماهير الشعبية- لأسباب خارجة عن طاقاتها- في متابعة أهدافها الثورية في المجالين القومي والاجتماعي.

وغربال لم يكن من ساكني الأبراج العاجية. ولكنه كان يرى أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الرجل الذي يعيش في غمرة الأحداث وحمى الكفاح وهو يحب الناس، وإن لم يكن يرتاح إلى كل الناس، وهو يحب المعرفة، ولكنه - كما سبق أن قلنا- يعشق التاريخ الذي كان ينظر إليه نظرة الناقد، وربما الناقد الذي يرى الأحداث من بعيد. ولم يشأ غربال أن يتخصص بالمعنى الضيق، وإنما كان موسوعي التكوين الثقافي؛ وربما كانت سعة ثقافته مسئولة عن القلة النسبية في إنتاجه.

والتاريخ- آخر الأمر- يقوم على منهج صارم لا يغتفر الشطط والفروض والخيال، ومن ثم كان الجهد الكبير الذي يستلزمه التأليف في التاريخ.

ولما كان غربال رائدًا في حقل تأسيس الدراسات التاريخية بشكلها الحديث، ولما كان لا يبخل بوقته على طلبته ومريديه، فإنه أسهم في أكثر من مجال إسهامًا يُمليه عليه وضعه في الحياة الفكرية المصرية، فأشرف على مراجعة ونَشْر مؤلفات طلبته وتقديمها، وأعطى الكثير من وقته لهذه الجمعية منذ أن ترأسها في عام ١٩٥٠، ولذا ينبغي ألا نُسرف في مطالبته بالكثير.

ومع ذلك فإنه أشار إلى الخطوط العريضة التي على المؤرخين الجدد أن ينتهجوها. ولم يكن جامدًا، كما سنراه خلال الترتيب الزمني لمؤلفاته الرائدة: فهو يبدأ عثمانيًا من حيث الاهتمام، ثم يرتاد مصر الحديثة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مؤرخًا لمحمد علي الذي لا شك كان له أثره في تحويل مجرى تاريخ مصر الحديث؛ ثم يكتب عن « تونس الخضراء » - موطن أجداده الأول- في سلسلة دائرة المعارف الإسلامية. توجيهه الأصلي، وقاعدة تفكيره الأساسية : العالم الإسلامي في ماضيه وحاضره ؛ ومصر جزء منه.

ورويدًا رويدًا نجده يخصُّ مصر باهتمامه الكبير، وبخاصة حين تعود مصر منتفضة في أعقاب الحرب العظمى الثانية، فترغم انجلترا على التفكير في الجلاء. ربما يكون هذا ما هو ما ألهمه بتتبع قصة المفاوضات المصرية البريطانية، ولقد أسف تلامذته ومريدوه أنه لم يكتب من هذا المشروع إلا الجزء الأول حتى معاهدة ١٩٣٦.

ثم تنتفض مصر انتفاضه ثورية في عام ١٩٥٢، هي لا شك التي ألهمته بسلسلة محاضراته الرائعة في الإذاعة الأوروبية التي تُرْجِمت ونُشرت في عام ١٩٥٧ بعنوان « تكوين مصر » - وهي سلسلة المحاضرات التي تُعَدُّ خلاصة اتجاهه الفكري، والتي يبدو فيها بحق تلميذًا لأرنولد توينبي.

وبعد أن سيطرت مصر على مُقَدَّراتها واسترجعت إرادتها، انطلقت إلى آفاق العروبة، وخلعت عليها رسالة تبنِّي الاتجاهات العربية التحررية. وكان غربال مُديرًا لمعهد الدراسات العربية العالية حيث ألقى محاضراته عن العالم العربي، وهي المحاضرات التي طبع بعضها تحت عنوان « **منهاج مُفَصَّل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم** ».

أرأيت كيف كان غربال مرآة لعصره باعتباره فنانًا ؟! العالم الإسلامي بمعناه الواسع في قديمه

وحديثه هو مجال اهتمامه، وبخاصة آثار تفاعل هذا العالم الإسلامي بالحضارة الغربية. خلّف ذلك شيئًا من التوتر، لم يكن غربال يجده مجالًا للدهشة أو حافزًا للجزع؛ فهو في ذاته ليس شيئاً فريدًا « يماثله التوتر الذي ينجم عن التقاء جيل الآباء بجيل الأبناء في الأمة الواحدة، أو الذي يكون بين الخاصة والعامة في أمة ما، أو بين الأديب ومجتمعه في أي مكان. وأظن أنه يصعب بعض الشيء أن نعثر على العقلية العربية والعقلية الغربية مختلفتين احداهما عن الأخرى بتلك الدرجة من التغاير التي يثيرها التعبير. وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نميز بين رجل أميل للمحافظة وآخر أميل للتجديد. وقد يكون أكثر مطابقة للواقع أن نتحدث عن تأثير القديم وتأثير الجديد بدلًا من أن نتكلم عن الشرق والغرب »[1].

فهو لا يعرف مشكلة ما في مصر إلا ولها نظير في أوروبا، والمشكلات هنا وهناك تختلف بطبيعة الحال في مظاهرها وفي حدَّتها أو تعقيدها.... « ولو أن الرجل منا قُدِّر عليه أن يُواجه في نفسه صباح مساء الصراع بين الشرق والغرب، وفُرِض عليه أن يبحث عن صيغة يُوفِّق بها بين عقليتين لكان بذلك شقيًّا ».

هذا هو جوهر تفكير غربال التاريخي: الصدام بين الغرب والشرق؛ تحدي الغرب واستجابة الشرق الإسلامي. وهذا هو الذي يُمَيِّزه عمن أخذوا التاريخ بظواهره وأحداثه دون نفاذ إلى أعماقه. وغربال – كما سبق أن قلنا- أديب فنان. وأرقى الخطوات في مسير الثقافة الإنسانية هي شمولها للإنسانية جميعها. وفي سبيل هذا الهدف حطم التأليف التاريخي قيوده التقليدية المعروفة، من شئون عامة وحروب ودين ليسجل كل المظاهر العقلية الإنسانية.

وقد سَاعَدَ الأدب على هذا التقدُّم: فالأدب هو المُعَبِّر عن رغبات الإنسان وأمانيه، كما ساعد عليه أيضًا العلم وهو التعبير الجدي الصارم عن نزعته إلى المعرفة. وقد تخطى عون الآداب في هذا السَّبيل حدود الشكل والأسلوب التي تصفها الكتب التي تعالج موضوع التاريخ كأدب، فزودت المؤرِّخين ببصيرة نافذة شديدة المرونة والعمق في أمور العقل الإنساني. إلا أنه إذا

(١) من كلمته في المجمع اللغوي في ٤ نوفمبر ١٩٥٧ عن محمد حسين هيكل بمناسبة شغله المكان الذي خلا في المجمع بوفاة هيكل.

تغلّب الأدب على المؤرخ لإهماله العلم ، أو إذا تغلب عليه العلم لإهماله الأدب، جاءت الصورة التي يرسمها للإنسانية ملتوية مشوهة .

فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بِقَدْر ما بين المعرفة والفن من اتساق في العمل . انظر إليه – مثلًا – يُقَدِّم لكتابة عن تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، تجد مصداقًا لهذه النظرة العامة ، فهو يقول : « في هذه الفصول محاولة لتركيب صورة واضحة من الحوادث والوقائع والسياسات والخطط والبواعث والأغراض والأماني والشهوات التي توالت على مصر والتي يتكون منها تاريخ العلاقات بين مصر وإنجلترا إلى هذه الأيام . وقد تتابعت هذه الأشياء المختلفة علينا نحن المصريين منفصلة أو متصلة وحكمنا عليها بما شئنا أو بما أُريد لنا . واليوم وقد بلغنا نقطة تحول فاصلة ، ووصلنا إلى مرحلة حاسمة في المصير ، وجدت من الخير أن نقف عند هذه المرحلة موقف التفكير المُنَظَّم وهذا التفكير المُنَظَّم لابد أن يقوم على أساس . وهذا الأساس هو ما سميته الصورة المركبة من المتفرقات التي أشرنا إليها . ولهذا العمل خطورته ومسئوليته وصعابه . وله أيضًا متعته . ولكنه جد لازم . وهو واجب وطني ينبغي على كل مواطن أن يحاول أداءه لنفسه بالقَدْر الذي يستطيع » .

ولقد كتب هذا التقديم لكتابه في مايو ١٩٥٢ حين كانت مصر تمر بمرحلة الغليان السابق على الثورة. ثم يستكمل هذا التقديم بتبيان نظرته إلى قيمة الشخصيات الفردية فيقول : « وقصة الرجال في تاريخ المفاوضات المصرية تكسب الموضوع متعة أي متعة: فلكل منهم شخصيته وصفاته، وفي كل واحد منهم عناصر القوة وعناصر الضعف لا يشارك غيره فيها ويكفي أن نذكر أسماء بعض من أصبحوا منهم في ذمة التاريخ لنستدل على ما في هذه الناحية من الموضوع من ثروة للمترجم: الملك فؤاد، سعد زغلول، حسين رشدي، عدلي يكن ، عبد الخالق ثروت، إسماعيل صدقي ، محمد محمود، أحمد ماهر، محمود فهمي النقراشي، عبد العزيز فهمي، وغيرهم. هؤلاء الرجال كانوا من طراز لم تعرفه مصر قبل حقبة المفاوضات. فقد تجمع في مصر فى ثلاثين عامًا من ذخيرة العمل السياسي ما تجمع لدى غيرها من الأمم ما يماثله في قرن أو قرون من الزمان. ويحمل التجمع الغزير في الزمن القصير ما يحمل النبات ينمو في ظروف مصطنعة من

العلامـات والخصائص، ولـم يكن لمصر حيلة فيمـا حصل، وها هي ذي قد كسـبت الاهتمام بالمسائل العامة فعليها أن تكسب تنظيم الاشتغال بالسياسة والعناية بالتربية الوطنية ».

بعـد هـذه الإلمامة بطريقة تفكير غربال ومنهجه في الدراسـات التاريخيـة، أعود فأحاول أن أُطَبِّق هذه الملحوظات على أهم مؤلفاته مسلسلة زمنيًّا، وبذلك أتجنب - بقدر الإمكان- إغراء التعميمات التي لا شك لها خطورتها من حيث تقييم الجهد التاريخي.

سـأبدأ برسـالته الـتي حصل بها على درجة الماجسـتير مـن جامعة لندن، وهي الرسـالة التي أشرف عليه في أثناء تحضير مرحلة منها الأستاذ أرنولد توينبي، ثم نُشرت في عام ١٩٢٨ بعنوان:
(The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise Of Mohamed Ali)

اختـار موضـوعًا لدراسـته إذا فترة مهمـة من تاريخ مـصر: وهي الفترة الواقعـة ما بين مجيء الحملة الفرنسـية في عام ١٧٩٨ وعقد صلح بوخارسـت بين روسـيا وتركيا في عام ١٨١٢.

وأهم ما في هذه الرسالة أنها تربط أحداث مصر بالموقف الدولي: بحروب نابليون ودبلوماسيته وبالسياسات الأوروبية العامة؛ كما تربطها بالمسألة الشرقية وتاريخ تركيا.

والفترة التى اختارها غربال موضوعًا لدراسـته فترة حاسـمة في تاريخ كل من مصر وتركيا: إنها بداية المرحلة الإيجابية من المشروعات التوسعية الأوروبية في العالم العربي، وبداية مرحلة جديدة في تاريـخ المسـألة الشرقيـة بكـل مـا في طياتها من محـاولات للإصلاح في تركيـا، ومن حركات قومية من نوع خاص في البلقان التركي، وما بين هذه الحركات القومية والدول الأوروبية الكبرى- وبخاصة روسـيا- من صلات، ومشكلة البوغازين وموقف انجلترا منهما ومن البحرية الروسية في البحر الأسود. لهذا كان العنوان الجانبي للبحث: « **دراسة لدبلوماسية العهد النابليوني- مبنية على دراسات في دور الوثائق البريطانية والفرنسية** ».

وقد أهدى غربال الرسـالة لتوينبي باعتباره: « **معلمًا عظيمًا وأسـتاذًا مُلْهِمًا** » وقدَّم توينبي للرسـالة المنشـورة بكلمات تبرز أهمية البحث، مؤكدًا أنه قد استفاد من الإشراف عليه أكثر مما أفاد، مشـيدًا بصفات غربال المؤرخ الناشـئ : فهو على اتصال بالشرق والغرب، وهو بعيد كل

البُعد عن الأهواء والمُيول التي تُحيط بموضوع دراسته، بحيث لو أن اسمه لم يُطبع مع البحث لكان من الصعب القول بأن المؤلف إنجليزي أو فرنسي أو مصري أو ينتسب إلى بلد آخر غير إنجلترا ومصر وفرنسا.

وقد أشاد توبيني بهذا التجرد الذي اتسم به غربال حين كتب رسالته الأولى، مؤكدًا أن ذلك أمرٌ صعبٌ نسبة إلى الرواسب التي خلّفها لدى المصريين ما كان من ذكرى علاقاتهم السياسية بإنجلترا منذ أكثر من قرن وأضاف إلى ذلك ما اتصف به غربال المؤرخ الناشيء من إلمام بعلم استخراج المادة التاريخية من الوثائق، وعرض الحقائق التي يصل إليها.

وأتبع توبيني تقديمه بدراسة مقارنة لمصر العصور الوسطي ومصر الحملة الفرنسية، وهي الفترة التي نكبت فيها مصر بالركود، بحيث حين جاءتها الحملة الفرنسية، واصطرع الفرنسيون والإنجليز على الأراضي المصرية كان ذلك بالنسبة الي المصريين وإلى مؤرخهم الجبرتي وكأنه مجموعة من السوبرمن، تحارب مجموعة أخرى من السوبرمن، على حين أن الفرنسيين والإنجليز كانوا بشرًا، إنما بشر من نوع خاص: توصلوا إلى طرائق حديثه في العلم والمعرفة والتنظيم.

ولم يدرك هذه الحقيقة من المصطرعين المسلمين على السلطان في مصر بعد جلاء الحملة سوى محمد علي الذي أكمل الاتجاهات التي عرفتها مصر بمجيء الفرنسيين، ووجه مصر وشعب مصر وجهات جديدة . لم يكمل غربال قصة محمد علي، وإنما انتهى عند الفترة التي ثبت فيها محمد علي سلطانه ووضع أسس حكمه. ومنذ ذلك الوقت أخذت المسألة المصرية تشق طريقًا خاصًا بها إما في ثنايا المسألة الشرقية العامة أو منفصلة عنها.

رسالة غربال هذه عن أُصُول المسألة تُمَثِّل نَقْلَةً لها أهميتها في الكتابة التاريخية في مصر. فمؤلفها اعتمد على الوثائق الأوروبية غير المنشورة، وهذا أمر جديد في تاريخ الدراسات التاريخية في مصر. سبقته لا شك أبحاث من هذا النوع منها- على ما أذكر - بحث الدكتور سيد كامل عن « مؤتمر الآستانة والمسألة المصرية في عام ١٨٨٢ »[١]، وهو البحث الذي نُشر بالفرنسية في عام ١٩١٣ .

(١) La conference Constantinople et La Question Egyptienne en1882.

بُني هذا البحث حقيقة على الدراسة الوثائقية. ولكنه لم يعتمد سوى على الوثائق والحوليات المطبوعة- وله في ذلك عذره ؛ إذ أن دُور الوثائق لا تسمح بالاطلاع على الوثائق إلا بعد مرور فترة معينة، بحيث لا يتضمن الاطلاع على الوثائق الرسمية إفشاءW للأسرار التى تَمَسّ السياسة العامة للدولة المعنيَّة.

الملحوظة الثانية على هذه الاتجاهات الرائدة : أنها نظرت إلى الأحداث والسياسات من وجهة النظر القانونية ، مثل الدكتور سيد كامل في ذلك مثل الدكتور محمد حسين هيكل حين وضع بحثه عن « دَيْن مصر العام » ، وهو البحث الذي حصل به على درجة الدكتوراة من إحدى الجامعات الفرنسية أيضًا. ربما كان مرجع ذلك أن التاريخ بشكله المنظم لم يكن حينئذ قد أصبح علمًا مستقلًا قائمًا بذاته، وأنه لم يكن قد ظهر في مصر مؤرخون متخصصون بمعنى الكلمة . وبهذه المناسبة يجدر بي أن أشيد بالجهد الذي بذله في هذا المضمار الدكتور محمد صبري « السوربوبي » الذي تعتبر أبحاثه عن عصري محمد على وإسماعيل و « نشأة الرأي العام في مصر »، وهي الأبحاث التي وضعها باللغة الفرنسية، مما لا غنى عنه لكل من يدرس تاريخ الفترات التى تناولها. بيد أن بحث غربال عن بداية المسألة المصرية كان أسبق من الناحية الزمنية، وإن يكن يبدو أن هذين الرائدين كانا يُحَصِّلان الدرس في فترة واحدة : إذ كان الدكتور صبري- وهو طالب في فرنسا- ممن اتصلوا بسعد وبالوفد في باريس في أعقاب الحرب العظمى الأولى .

لهذا نستشف في مؤلفات صبري الأولى الروح القومي الذي لا نستشفه عند غربال الناشئ. فصبري أديب مؤرخ ؛ على حين أن غربال مؤرخ أديب- ولكل من الرجلين قيمته ، ولمنهاج كل منهما وزنه. وفرقٌ بين التزمت الإنجليزي البارد فى العلم كما تَلَقَّنَهُ غربال في انجلترا ، وبين العاطفية والنزعة الفنية ، والشاعرية الفكرية التي جعلت من باريس فترة ما ـ وربما إلى اليوم ـ قبلة المفكرين والفنانين الكبار من شتى أنحاء العالم .

وقد أرشدت هذه البداية غربالًا إلى الطريق الذي لابد منه في توجيه دراسات تلامذته الذين اعتمد الرعيل الأول منهم على وثائق دور المحفوظات المصرية وتناولا بالدراسة موضوعات

مهمة في تاريخ مصر الحديث. وأَسْهَمَ هو بدوره في هذا المجال، مُسَلِّطًا الأضواء على فترات أو شخصيات لها أهميتها؛ إذ كان غربال يعرف كيف يختار موضوعه: واختيار الموضوع ذاته يعتمد على نوع الشخصية التى تختار. كان غربال إما يحصر موضوعه أو يضع الاتجاه ذاته والخطوط العريضة، تاركًا الدراسات الجانبية لتلامذته ومن يحذو حذوه.

ومما نستعرضه من مؤلفاته نجده يبتعد- قدر الاستطاعة - عن الدراسات الكلية الشاسعة، وبخاصة فيما يتعلق بالفترات أو الشخصيات التي لم تسلط عليها الأضواء بعد؛ إذ أنه كان يدرك أن حقل تاريخ مصر الحديث بكر، وأنه قبل التصدي للكتابة لا بد من نشر الوثائق وأدوات البحث الأخرى.

وفي عام ١٩٣٢ نشر بحثه عن « **الجنرال يعقوب والفارس لسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١** » وفي هذا البحث أبرز فكرة استقلال مصر عن تركيا، على أساس التفاوض في العواصم الأوروبية، كما تخيّلها يعقوب حنا ولسكارس بعد جلاء الفرنسيين عن مصر، وقد بنى هذا البحث على المصادر العربية والإفريجية؛ وكعادته في مثل هذه التآليف، واستمرارًا لرسالته التي أشار فيها إشارة سريعة إلى هذا المشروع، نجده يربط هذا البحث رابطًا محكمًا بالموقف الدولي وبأوضاع مصر ذاتها ومستوى أبنائها وأحوالها الاجتماعية.

وفي عام ١٩٣٦ نشر بحثه: « **مصر عند مفرق الطرق- رسالة حسين أفندي الروزنامجي** ».

في هذا البحث يتناول مجموعة الأسئلة التي وجهها إستيف مدير الإدارة المالية في عهد الحملة الفرنسية إلى حسين أفندي الروزنامجي أحد أفندية الروزنامة في مصر، وإجابات حسين أفندي على هذه الأسئلة. وهذا البحث أنموذج للتحقيق العلمي، ولا يزال حتى الوقت الحاضر من المصادر الأساسية لأحوال مصر العثمانية.

وبداية الحملة الفرنسية، ومشروع يعقوب حنا ولسكاريس الخاص باستقلال مصر في سنة ١٨٠١، ومصر عند مفرق الطرق ... كل هذا لا بد أن يغري غربال بالدخول الى عصر محمد علي جملة وتفصيلًا. والموضوع ذاته جدير بالاهتمام ولا يزال مثارًا للنقاش حتى الوقت الحاضر

طبقًا لنوع النظرة التى تحيط بمن يتناول عصر محمد علي والرجل ذاته ونوعية مستوي الشعب المصري في الفترة التي تولى فيها محمد علي الحكم والتى أرسى فيها دعائم هذا الحكم، ثم حول مجرى تاريخ مصر الحديث شاء هذا الحكم من يقرأ تاريخ محمد علي أم لم يشأ.

ظهر كتاب « محمد علي الكبير » في عام ١٩٤٤ . وهذا الكتاب قمة من قمم الدراسات التاريخية التي كتبت باللغة العربية على الإطلاق. ورغم القِلّة النسبية لعدد صفحاته ، فإنه يفرض علينا وقفة خاصة: إذ أنه أنموذج متكامل، وربما كان الأنموذج الوحيد، للكتابة التاريخية كما يراها غربال.

فمحمد علي هنا ليس شخصية تتحرك في الزمان والمكان ؛ ولكنه محور لدراسات: تبدأ الدراسات بمصر العثمانية ، ثم الحملة الفرنسية ؛ وتنتقل إلى أوروبا وتركيا، ثم إلى أحوال المجتمع المصري كما تسلمه محمد علي ، ثم التحول البطيء لهذا المجتمع وفق ما أرتأته له مشيئة محمد علي.

مجتمع ينتقل من حال إلى حال، على الأقل في دوائره العليا، إذ مسائل التغير الاجتماعي لا يمكن تناولها بنظرتنا إلى مسائل التغير المادي.... مجتمع مصري مُتَخَلّف توضع له أدوات وأركان التغير التقدمي ولو بعد حين طويل ، وغربال يحاول أن يخلع على محمد على خطة محكمة هي التي أفضت إلى بناء قواعد الدولة الحديثة في مصر ، ويصوره لنا يدفع جيل الفلاحين والعمال والجنود المصريين إلى آفاق فسيحة، ويحاول أن يبرر شدته على الشعب والمماليك وتبنيه « للأرستقراطية التي تتكلم اللغة التركية » .

وعلى أى حال فالمؤرخ ليس القاضي الذي يمسك بيديه موازين العدالة ، ويوزع الخير والشر كما يحاوله، وإنما هو يحكم على الأشخاص والأعمال في نطاق الطبيعة البشرية.

نُشِر هذا الكتاب في « سلسلة أعلام الإسلام » – وهو يختلف عن مؤرخي مصر الحديثة الذين ينظرون إلى مصر العثمانية باعتبارها جزءًا من تاريخ مصر، في حين أن غربال يعتبر مصر العثمانية ومصر محمد علي جزءًا من تاريخ الإسلام . وقد برر هو ذاته اختياره محمد علي علمًا من أعلام الإسلام، على اعتبار أن مصطلح « إسلامي » لا يقف عنده فترة تاريخية معينة .

ثم جعل من محمد علي محورًا لدراسة عصره في الشرق والغرب، مصطنعًا أسلوب التحليل

والتركيز والربط كأحسن ما يكون الاصطناع.

وصدر في هذا الكتاب عن تمكن تام من موضوعه، وعن أسلوب للتعبير يصطنع الدقة المتناهية في اختيار اللفظ، وطرق العرض الفلسفية وطرائق علم النفس ومناهج علم الاجتماع.

وهو في هذه الترجمة إسلامي بالمعنى الواسع. يربط موضوعه في إطار تجسيم ما قد قام به محمد علي مع الرفق الشديد حين يُعَدِّد له الهنَّات الهيِّنات. انظر إليه يُقارن بين مصر المماليك المتأخرين ومصر المماليك الأول: « مصر بيبرس محور ذلك العالم العربي الذي اكتسب مقوماته وانفرد بشخصيته على أثر انهيار الخلافة العباسية. وهو اجتماع يتركب من طوائف وجماعات لها شخصيتها وقانونها وعُرْفها ووظيفتها. فمن أصحاب السيوف الى أصحاب الأقلام، ومن أهل الفلاحة للأصناف (أصحاب الصناعات) ومن أرباب السجاجيد إلى هيئات التدريس- وهلم جرا. ويكتسب ذلك الاجتماع الصاخب حيويته من حكم الجماعات نفسها بنفسها، كما يكتسب لونًا من التنسيق والانسجام من شخصية السلطان؛ يدفع الناس بعضهم ببعض، ويحاول أن يخضع الأهواء والمصالح لجهود عامة في تحقيق مُثُل عُليا تهم الناس جميعًا. ولكن كانت آفة ذلك الاجتماع ما صَحِبَهُ من سَرف وتبديد كان من شأنهما على توالي الزمن وضع أعباء على الطوائف المنتجة من أهل الفلاحة والصناعة والتجارة، أَنْهَكت قواها الحسية والمعنوية. وكانت آفته الأخرى من أول الأمر انصراف الناس نحو شئونهم الخاصة بأشخاصهم وجماعاتهم، وابتعادهم عن الشئون العامة واعتبارهم إياها « سياسة عليا »، كما نقول الآن، هي مما ينبغي النظر فيه للسلطان والأمراء، وليست مما ينبغي للرعية. وقد وجدوا في تعليم أئمتهم ما يُبرر إيثارهم العافية ».

وفي هذه الفترة أيضًا صدَّر غربال للكتاب الذي أصدرته « دائرة المعارف الإسلامية » عن: « تونس الخضراء » بمقدّمة سياسية تناولت الوضع الدولي السابق على فرض فرنسا حمايتها على تونس؛ إذ لا يمكن فهم هذا التطور في السياسة الفرنسية إلا بربطه بأوضاع المسألة الشرقية والحرب الروسية- التركية (١٨٧٧-٨)، ثم مؤتمر برلين وما طرح فيه على بساط البحث من تقسيم للإمبراطورية العثمانية وهذه المقدمة القصيرة المركزة تدخل بنا إلى المقدمات الأخرى

المركزة التي وضعها غربال لكثير من مؤلفات وترجمات طلبته والعاملين معه .

وتمتاز هذه المقدمات بالشمول ، وتهيئة الذهن للموضوع ؛ بل إن بعضها مما يغني الدارس غير المتخصص عن الإيغال في تفاصيل الموضوع ذاته .

وفي عام ١٩٥٢ نشر غربال الجزء الأول والأخير من كتابه عن « **تاريخ المفاوضات المصرية - البريطانية** » ، وهو أطول ما كتبه غربال باللغة العربية ويُخيل إلى أن غربال لم يعط نفسه فسحة من الوقت لصقل هذا الكتاب ومراجعته . ولذا فإننا نجد مراحله الأولى تختلف عن مراحله الأخيرة التي يُسرف فيها في عرض النصوص الكاملة لمشروعات الاتفاقات ومحور المفاوضات بين الإنجليز والمصريين . وكان يستحسن أن يلخص مضمونها، على أن تُورَدُ النصوص في ملاحق مستقلة .

على أن غربال - باعتباره رائدًا من رواد التاريخ الحديث ، وتاريخ مصر الحديثة بالذات- يُلفت النظر في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى مصادر التاريخ المصري الحديث ، على الأقل في فترة دراسته. هناك مثلًا المجموعات الرسمية التي أصدرتها الحكومتان المصرية والإنجليزية ، أو مجموعات الكتب الملونة : بيضاء وخضراء وزرقاء .

وهناك الصحف والمضابط البرلمانية . وأهمية كل ذلك نسبية طالما أن الوثائق الرسمية الأصلية لم يُكْشَف عنها اللثام بعد : فالوثائق الرسمية المصرية تقف عند عام ١٨٧٩ ، أي قبل موضوع بحث غربال بسنوات ثلاث ؛ والوثائق الإنجليزية - على ما أعلم - تقف عند عام ١٩١١ وللآن لم تقم دراسة وثائقية للفترة التالية على عام ١٨٨٢ فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر وإنجلترا سواء بالإنجليزية أم بالعربية .

ثم ينتقل في هذا الموضوع الى المذكرات الخاصة ، فيقول إن كتابتها لم تتأصل بعد بين رجالنا- حتى مذكرات الدكتور هيكل في السياسة المصرية هي لديه أقرب إلى التاريخ منها إلى المذكرات لأنها لم تكتب وقت حُدُوث الوقائع ، بل بعدها بوقت ما .

وينتقل بعد ذلك إلى التراجم ، فيسجل قلتها إن لم يكن عدمها ونوَّه بترجمة عباس محمود العقاد لسعد زغلول ، ونقد بعض جوانبها، وخرج الى أنها بحث ممتع ؛ **ولكنه لا يُعين كثيرًا على**

الترجمة لسعد زغلول .

وقد انتقل غربال في آخر هذا الفصل إلى الدراسة التاريخية، ونوه بجهود الأستاذ الرافعي في جمع مادة تاريخ مصر الحديثة منذ أواخر العهد العثماني وأخذ عليه طريقته في الحكم: الميزان ذو الكفتين ؛ وهذه طريقة وإن يكن لها وزنها في دنيا القضاء والقوانين إلا أنها لا تصدق على التاريخ. فالعدالة في الحكم التاريخي- عند غربال لا تتحقق على هذا الوجه السَّهل ، ولا تتم إلا بالتقدير العام لسياسة أو لموقف .

على أن بحث غربال في تاريخ المفاوضات يُشْتَم منه التفاعل بالأحداث والخروج بعض الشيء عن التجرد الذي لمسناه فيه حين وضع رسالته عن « **أُصول المسألة المصرية وظهور محمد علي** » فهو يكتب في موضوع حساس عاش معظم فترته وكشأن المواطن الذي لابد مهتم بمصائر بلده ، نجد غربال يبتعد عن تزمت المؤرخ، ويمسك بالميزان الذي أخذ على الرافعي أنه جعله ذا كفتين: فهو له آراؤه الخاصة في المواقف والرجال، وهو مصري بشكل واضح ينعي على قومه الفرقة التي لم يكن لها أحيانًا ما يبررها واستشهد بقول الشاعر :

قومي هـمو قتلوا أميم أخي فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهنن عظمي

وتتضح هذه المصرية بشكل أكيد في سلسلة المحاضرات التي ألقاها في الإذاعة الأوروبية ونُشرت في أصلها الإنجليزي أولًا بعنوان The Making of Modern Egypt ثم ترجمها الأستاذ محمد رفعت في عام ١٩٥٧ تحت عنوان: « **تكوين مصر** » .

وهنا يتضح النهج التي سبق أن لمسناه في كتاب « **محمد علي الكبير** » ، مع مسحة حضارية تناسب الموضوع الشاسع في الحيز الضيق . خَفَت في هذه المحاضرات المؤثرات العثمانية- الإسلامية ، وتبلورت فيه الصورة المصرية مجرَّدة عن كل ما يمكن أن يفرق بين المصريين ، بحيث حين تأتي المرحلة العربية من اتجاه مصر الحديثة ، وهى المرحلة التى اتضحت بشكل بارز بعد ثورة ١٩٥٢ ، يكون غربال قد مهَّد نفسه لصقل الصورة العربية العامة وموضع مصر من هذه الصورة .

في هذه المحاضرات نجد غربال عاشقًا لمصر خلال العصور كلها . « وهذا على الرغم من أنني أعرف أنه ليس في مقدور الرجل منا أن يحيط بالأدوات والدراسات كافة اللازمة لكل قسم من أقسام تاريخ مصر المعروفة .... دع عنك الإحاطة بها جميعًا . بيد أن الأخصائي والقارئ غير الأخصائي كلاهما يجد مُتعة ذهنية ومغنمًا في آنٍ واحدٍ لو حاد بين الفينة والفينة عن طريق التخصص؛ الطريق الضيق واضعًا نُصْب عينيه أن هناك « مصر » دائمًا، وأنها تسمو فوق هامات الحقب والعصور » .

بعد هذه المقدمة الشّيقة نجده يتناول موضوعات الاستمرار والتغيير في تاريخ مصر؛ الحكومة والمجتمع في مصر ؛ الإنسان والمجتمع في مصر؛ المدينة والريف في تاريخ مصر ؛ مصر والعهد القديم ؛ مصر والهيلينية ؛ مصر والمسيحية ؛ مصر والإسلام ؛ وأخيرًا مصر والغرب .

إنّ هذه المحاضرات تُمَثّل نوعًا فريدًا في طريقة العرض التاريخي في العالم العربي- الإسلامي ، شأنها في ذلك شان كتاب « محمد علي الكبير » هنا ، وهنا بحق ، نجد غربال تلميذًا لأرنولد توينبي دون أن يتقيَّد بحرفية منهاج أستاذه في تفسير التفاعل الحضاري وانتقال المؤثرات الحضارية من مكان إلى مكان .

فمن الإسراف وضع قانون ثابت أو قوانين ثابتة لحركات المجتمعات التي هي المادة الحية للتاريخ بمعناه الواسع . ذلك أن الإنسان لا يصدر في سلوكه الفردي والجماعي عن أنماط ثابتة من السلوك بحيث تكون الاستجابة على قَدْر المُؤَثّر - كما هو الحال في القوانين الطبيعية ولدي الأنماط الدنيا من الكائنات الحية . إنه ليس آلة صماء يسهل التحكم فيها .

فأرنولد توينبي- مثلًا- يبنى دراسته للتاريخ على قانون ثابت يقوم على التحدي والاستجابة ؛ وقد لقى تفسيره للتطور الحضاري كثيرًا من المآخذ في إنجلترا ، وإن كنا لا نستطيع إنكار قيمة الجهد الذي قام به . وكارل ماكس يربط بين حركة التاريخ الصاعدة وبين العامل المادي- الاقتصادي . ومدرسة السلوكيين في علم النفس تستمسك بالفعل المنعكس الشرطي القائم على تجارب العالم الروسي بافلوف على الكلاب. وفرويد يضع الغريزة الجنسية وراء كل دافع بشري .

وربما كانت نظرة « أرنولد توينبي » أكثر مرونة من غيرها ؛ فالإنسان- مع تمتعه بقسط وافر من حرية الاختيار لا يستطيع فكاكًا من إسار الطبيعة وبيئته المادية. ونحن لا نستطيع أن ننكر أثر تحدي الطبيعة للإنسان وتحدي الإنسان للإنسان في مجرى النشاط البشري العام . ولكننا الآن – في النصف الثاني من القرن العشرين - نجد الإنسان وقد توافرت له الأدوات التي لا شك سَتُمَكّنه - لو أحسن استخدامها - من التغلب على الطبيعة والتخفف من إسارها الذي كان بالنسبة إلى الإنسان القديم، بل ربما حتى الوقت الحاضر في مجالات شاسعة، قدرًا غالبًا وحتمية قهرية .

إن إنسان النصف الثاني من القرن العشرين هو الذي يتحدى. ومع ذلك فليس في طاقتنا أن نتنبأ بخطوط تفصيلية محددة للتطور البشري. فمهمة المؤرخ هى ترتيب ما يتجمع لديه من الوقائع التاريخية وتحليلها وتفسيرها . وليست مهمته التنبؤ أو الحدس سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالمستقبل، إلا أن يكون ذلك من قبيل الافتراض العلمي.

أدرك غربال كل ذلك إدراكًا واعيًا، فلم يشأ أن يخضع لفلسفة تاريخية معينة. فهو يأخذ من كل تفسير بِقَدَر، طبقًا للمُلابسات التى تُحيط بموضوعه ، وحيثما تُصادفه قضية كبرى من قضايا التطور الاجتماعي نجده يستشهد بآراء كبار المفكرين التي قد تُفَسّر الزوايا المختلفة لهذه القضية ، دون أن يربط نفسه كليًا بهذا أو بذاك .

هذا وغربال – لا شك – كان على علم وثيق بأهم المناهج التاريخية وبالأنماط المختلفة من كبار المفكرين. ولكن طبيعته السمحة واتساع أفقه وإيمانه الواضح بحرية الإنسان مما جعله يتحرَّز من الانتماء لمدرسة معينة في تفسير التاريخ . وبين هذا وذاك نجد لديه تمشيًا مع أستاذه « أرنولد توينبي » في الأخذ بقيمة الصفوة الخالقة élite في مجال النشاط البشري بشتى زواياه. وهذه نقطة جوهرية هي باستمرار مثار للنفاس وبخاصة بعد ظهور التحدي الاشتراكي في المجالين الاجتماعي والفكري، وهو التحدي الذي خلع على الجماهير من الوعي ما لم يخلعه الكتاب من قديم الزمن.

أما المحاضرات التي ألقاها غربال في معهد الدراسات العربية ونُشرت قبيل وفاته بعنوان : « **منهاج مُفَصَّل لدراسة العوامل الأساسية في بناء الأمة العربية كما هي عليه اليوم** » ، فهي آخر مجهودات غربال في مجال الكتابة التاريخية، وإن لم تكن آخر ما طُبِع له ؛ فقد جمعت دار الإذاعة متفرقات من أحاديثه تحت عنوان « من زاوية القاهرة » سننهي بها حديثنا عن غربال .

في « **المنهاج المفصل** » نجد غربال يضع الخطوط العريضة للتفاعل والصِّراع في العالم العربي تحت الحكم العثماني وبعد الحكم العثماني .

والمُحاضرات تنقسم قسمين :

القسم الأول : لمحة سريعة عن العالم العربي والدول المختلفة القائمة فيه : الموقع الجغرافي لكل منها واقتصادياتها وتعداد سكانها.

أما القسم الثاني : فهو القسم المهم، وفيه يعرض المؤلف للعالم العربي والأوضاع القائمة فيه والتيارات الفكرية التى غلبت على الناس ، وكانت سببًا في تأخر العالم العربي .

فالاتجاه العام قبل التحدي الأوروبي هو أن العرب المسلمين عاشوا في جو خيالي نابع من معتقداتهم الدينية : فقد تصوروا أنهم بعزلتهم لهم الجنة وأن لغيرهم النار . لهذا لم يتطلَّعوا إلى الاستزادة من العلم التطبيقي الأوروبي . وساعد على ذلك أن الحكم العثماني كان يحول بينهم وبين التطور، وذلك برغم حركة التنظيمات المستوحاة من التفوق الأوروبي خصوصًا في جوانبه المادية . وقد جاء التوتر السياسي في العالم العربي نتيجة لمحاولة الدولة العثمانية تقوية قبضتها على البلدان العربية ، وهو ما عرف بحركة التتريك .

ثم تلا ذلك سقوط الإمبراطورية العثمانية ووقوع العالم العربي تحت التبعية الأوروبية . وقد أبرز المؤلف دور حركة الشريف حسين ودور المثقفين الذين عقدوا مؤتمرهم في باريس في عام ١٩١٣، وكيف أن الفريقين قد ركبا متن الشطط ، وانتهزت كل من إنجلترا وفرنسا الفرصة لتقسيم العالم العربي ووضعه تحت نفوذهما المباشر . ولكن المد القومي الصَّاعد ما لبث أن تبلور وتجمع متمثلًا في رفض المعاهدات التى أمليت والوضع غير العادل الذي ادّخر لفلسطين .

وما لبث العالم العربي في مشارقه ومغاربه أن تصدَّى للحصول على استقلاله ، خاصة وأن البلدان العربية في مجموعها مجيدة التاريخ سواء قبل أن تصبح عربية وبعد أن أصبحت عربية .

وصفات العرب كما كانوا عليه تحت الحكم العثماني ليست هي الصفات الأصيلة فيهم؛ بل هي صفات دخيلة بحكم الركود والجمود . فمقومات التاريخ العربي - كما يذكر غربال في إحدي محاضراته الإذاعية المطبوعة - متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط : فارتقاء الحسيات يقابله ارتقاء مماثل للمعنويات ؛ والعناية بالزراعة وما يتصل بها من الغراسات والتفنن في الاستنبات والبراعة في جر المياه وصرفها ، لا تقل عن العناية بالصناعات، والزراعة والصناعة شأنهما لا يقل عن شان التجارة وما يتصل بها من تنظيم وطرائق إنهاء الحقوق والادخار والائتمان » .

وهذا ينطبق على الحياة العقلية : فهي تعنى بالأبحاث النظرية دون إهمال للتطبيقات العملية ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالحياة الروحية : فلا إسراف عمومًا في رعاية ما يوجبه حق الجماعة وما يقتضيه حق الفرد . وهو يرى أن اللغة العربية هي جماع عقل وروح الأمة العربية، وهي أعظم ما خلق العرب، لماضيهم وحاضرهم ولمستقبلهم.

في المجموعة الأولى من هذه المحاضرات نجد غربالًا يتناول موضوعات حضارية بحتة أدرجت تحت عنوان نظرات في التاريخ العربي: العرب بين الأمم؛ تعبيرالفن عن الشخصية العربية ؛ تعبير العلم عن الشخصية؛ الشعوبية القديمة والشعوبية الجديدة؛ المدينة العربية .... حكومتها في الماضي والحاضر.

وفي هذه المحاضرات نجد غربالًا يختار النقاط البارزة في الحياة العربية، محاولًا تحديد مفهومي عربي وإسلامي .. ووصف إسلامي- لديه - أعم وأصدق .

ثم هو يُسَجِّل للعرب مُحافظتهم على حيويتهم ومقوماتهم منذ القرن السادس عشر برغم التغلغل الأوروبي والسيادة التركية العثمانية ، ويحثهم أولًا أن يكونوا أقوياء: « **فالقوي لا ينفع نفسه فحسب ، ولكن ينفع الناس جميعًا بقوته** » .

كذلك نجده يحاول مقارنة الشعوبية القديمة بالشعوبية الحديثة في داخل العالم العربي ، وأن

هـذه الأخـيرة لن تنال من العالم العربي أكثر مما نالت الشـعوبية القديمة : إذ المجتمع العربي قد التقـت فيه العناصر الوافدة والأصلية وتفاعلـت وأثمرت ، وأن هذا المجتمع مجتمع الجميع، وأن التاريخ العربي ملتقى التواريخ .

أرأيت كيف انتهى غربال محددًا لنفسه موقفًا إيجابيًا من قضية الحرية والالتزام ؟ إنه بصفته من رواد الفكر لابد له من وقْفَةٍ ايجابية إزاء مجتمع يتحرك ويتطور ويتطلّع إلى آفاق جديدة .

وأنهي كلمتي هذه بطرح قضية الحرية والالتزام على هذه الجمعية الموقرة القائمة في صمت على خدمة الدراسات التاريخية المتشحة بالثوب العلمي، مقتبسًا الفقرة الآتية من الميثاق الوطني :

« إن العلم للعلم في حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقتنا الوطنية في هذه المرحلة أن تتحمل أعباءها.

لذلك فإن العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية في هذه المرحلة .

على أن بلـوغ النضال الوطني لأهدافه سـوف يسـمح لنا في مرحلة متقدمـة من تطورنا بأن نساهم ايجابيًّا مع العالم في العلم للعلم » .

⊙⊙⊙